القصص

البلبـــل و الزهرة

لأسكار ويلد

ترجمة الاستاذ محمود الخفيف

صاح الطالب الشاب قائلا « وعدت أنها سوف تراقصنى إن أنا أحضرت لها وردا أحمر ، ولكن ليس فى حديقتى كلها وردة حمراء » .

فسمعه البلبل وهو فى عشه على شجرة السنديان وتطلع اليه فى دهشة من خلال الأوراق وأردف الفتى قائلا وقد اغرورقت بالدمع عيناه الجميلتان « لن توجد وردة حمراء فى حديقتى كلها ! آه . كم تكون السعادة رهينة بأتفه الأمور ! لقد قرأت كل ما كتبه العقـــلاء ووقفت على أسرار الفلسفة ومع ذلك أرى حياتى يكتنفها الشقاء من أجل وردة حمراء » !

وعندئذ قال البلبل « ها قد لقينا فى النهاية محبا صادقا . لقد طالما تغنيت بذكره الليلة تلو الليلة ولو لم أكن أعرفه . ولقد طالما تحدثت عنه الى النجوم . وهأنذا أراه الآن ! إن شعره فاحم كزهرة الخزامى ، وان شفتيه لتمثلان فى حمرتهما الوردة التى يطلب ، ولكن تواجده قد أحال لون وجهه الى لون العاج المصفار ، كما أن الأسى قد ترك طابعه فوق جبينه » .

وتمتم الطالب قائلا « سوف يقيم الامير حفلا مساء غد وستكون عشيقتى هناك ، فان أنا أحضرت لها وردة حمراء فانها ستراقصنى حتى مطلع الفجر ، وسوف تسند رأسها الى كتفى ، وتضع يدها فى قبضة يدى . ولكن ليس فى حديقتى وردة حمراء ، واذا فسوف أنزوى وحيدا ، وستمر بى عشيقتى فلا تأبه لى ، واذ ذاك يتحطم قلبى ! » ، وعاد البلبل الى حديثه قائلا « ها هو ذا محب وفى حقـا ! انه يشقى بما أترنم أنا به ، وان هذا الذى يعد مبعث الجذل عندى أراه عنده مبعث الهم والألم . حقا ان الحب لشىء عجيب ! ! انه أغلى ثمنا من الزمرد ، وأندر من تلك الجواهر المعروفة بعين الهر ، ولا يمكن أن يقوم باللآلىء ، كما انه لن يعرض فى الاسواق ، ولن يوجد عند تاجر أو يوزن فى ميزان الذهب » .

وقال الفتى « سوف تجلس جوقة الموسيقى فى البهو ، وسوف يعزف أفرادها على آلاتهم ، وعندئذ سوف ترقص عشيقتى على نغمات العود والقيثار ، وسترقص فى خفة حتى لن تمس أقدماها الارض ، وسيجتمع حولها رجال الحاشية فى ثيابهم الزاهية . أما أنا فانها لن تراقصنى ، فليس لدى وردة حمراء أقدمها اليها » ، وعندئذ القى الفتى بنفسه على العشب وغطى وجهه براحتيه واستسلم للبكاء فتساءلت حرباء خضراء ، كانت تجرى الى جواره رافعة ذيلها فى الهواء « ما الذى يبكى هذا الشاب » ؟ وشاركها فى تساؤلها فراش كان يرف فى شعاع الشمس . حقا ما ذا يبكيه ؟ « وأعقبتهما أقحوانة ، فهمست الى جارتها فى صوت خافت ناعم قائلة « فيم هذا البكاء » ؟

وأجاب البلبل قائلا « انه يبكى من أجل وردة حمراء »

فصاح الجميع فى دهشة « من أجل وردة حمراء ؟ ! . يالله من أمر مضحك » ، وصاحت الحرباء الصغيرة ضاحكة منه وفى عينيها معانى التهكم .

ولكن البلبل كان يفهم سر هذا الحزن فجلس صامتا على شجرة السنديان مفكرا فى الحب وما يكتنفه من أسرار .

وبينما كان غارقا فى تفكيره ، اذ بدا له فنشر أجنحته ذات اللون البنى ، وطفر تفع فى الهواء ، وعبر الحديقة كما يعبر الطيف حتى وقع بصره على شجرة ورد جميلة ، فحط على غصن من غصونها ، وصاح بها قائلا

« أعطنى وردة حمراء فأغنيك أحسن أغانى »

ولكن الشجرة هزت رأسها قائلة « إن وردى كله أبيض ، كزبد الموج فى بياضه أو هو أشـــد بياضا من الثلج الذى يكلل

قنن الجبال . اذهب الى أختى هنالك حول المزولة وستعطيك ما تطلب »

وطار البلبل حتى أتى تلك الشجرة فصاح بها

« أعطنى وردة حمراء فاغنيك أحسن أغانى »

ولكن الشجرة هزت رأسها قائلة « ان ورودى كلها صفراء ، تحكى فى صفرتها شعر الجنية التى تجلس على عرشها الكهرمانى ، أو هى أشد صفرة من زهرة النرجس التى يسطع لونها فى المرعى قبل أن يأخذها المنجل . ولكن اذهب الى اختى هنالك تحت نافذة الطالب ، وربما منحتك طلبتك ، فانطلق البلبل الى تلك الشجرة فخاطبها بقوله :

أعطنى وردة حمراء فاغنيك أحسن أغانى .

فهزت الشجرة رأسها قائلة «إن ورودى حمراء ، كقدم الحمامة فى حمرتها ، أو هى أشد حمرة من مراوح المرجان الهائلة التى تتماوج فى جوف الخضم ، ولكن الشتاء جمد عروقى ، والصقيع نثر براعمى ، والعاصفة قصفت غصونى ، ولذلك فسوف لا أدر وردة هذا العام »

فقال البلبل « ان كل ما أطلبه وردة حمراء واحدة ، وردة واحدة فقط . أو ليس من سبيل الى تلك الوردة » ؟

واجابته الشجرة قائلة «هناك وسيلة الى مبتغاك ، ولكنها جد مخيفة حتى انى لاأقوى على ذكرها » .

ولكن البلبل رد بقوله « هات ماعندك فلن أخاف شيئا »

وحينئذ قالت الشجرة « اذا كنت تريد وردة حمراء فعليك أن تبغيها بألحانك فى ضوء القمر ثم تفرغ عليها دم قلبك . عليك أن تغنينى ، وصدرك مسند الى شوكة من أشواكى ، وعليك أن تقطع الليل كله صادحا على أن تدع الشوكة تنفذ الى قلبك حتى يتدفق دم حياتك فى عروقى ويصبح لى »

وصاح البلبل قائلا « كثير أن أقدم حياتى ثمنا لوردة حمراء ، وحياة كل مخلوق غالية عنده . لشد ما يبهجنى أن أجلس فى الغابة الخضراء وأرقب الشمس تجرى فى مركبها الذهبى ، والقمر فى مخدعه اللؤلؤى . ماأجمل منظر الزهور فى عدوتى الوادى وعلى سفوح التلال ، وما ألذ النسيم ينشر فى الجو عطره الفياح . على أن الحب أحسن من الحياة ، وما قيمة قلب طائر اذا قورن بقلب رجل » ؟

ونشر البلبل أجنحته البنية وارتفع فى الجو وعبر الحديقة كالطيف ، حتى أتى الطالب فوجده حيث تركه لما يزل مستلقيا على العشب ، ولم تجف الدموع فى عينيه الجميلتين ، فوجه اليه الخطاب قائلا : (ابشر ايها الفتى ولا تحزن فسآتيك بالوردة الحمراء . سوف أبنيها بأغانى ضوء القمر ، وسوف أصبغها بدماء قلبى ، وكل ما أطلبه منك فى نظير ذلك أن تظل وفيا فى حبك ، فان الحب أكبر عقلا من الفلسفة ، وان اشتهرت بالحكمة ، وأشد سلطانا من القوة وإن اشتهرت بالبأس . ان أجنحته حمراء كاللهب ، وان جسده مشبع الصبغة من ذلك اللون المتوهج ، أما شفتاه فحلوتان كالشهد ، وأما أنفاسه فعطرات كالعنبر المتضوع .

ورفع الطالب رأسه مصغيا ولكنه لم يفهم ما قاله البلبل لأنه لا يفهم الا ما يقرأ على صفحات الكتب .

ولكن شجرة السنديان فهمت ماأعيا الطالب فهمه ، فاشتد حزنها لأنها كانت تحب هذا البلبل الصغير الذى بنى عشه فى أحضانها ، ثم توسلت اليه أن يغنيها أغنيته الأخيرة قائلة إنها سوف تعانى آلام الوحشة والعزلة لفقده .

فغناها البلبل أشجى ألحانه ، وكان صوته العذب كصوت الماء ينصب من إبريق فضى ، ولما فرغ البلبل من غنائه نهض الطالب وقد أخرج من جيبه ورقا وقلما وحدث نفسه وهو يسير فى ممرات الحديقة قائلا

« أما ان لهذا البلبل طريقة فى لحنه فهذا مالا سبيل الى انكاره ، ولكن ليت شعرى هل يصحب هذا اللحن شعور ؟ أخشى أن يكون هذا الشعور معدوماً ، واذا رجعت الى الحقيقة فهو كمعظم الفنانين . إن له أسلوبا ولكنه ينقصه الاخلاص لفنه . وانه لن يضحى بنفسه من أجل الغير . ولن يفكر الا فى الموسيقى ، وكل انسان يعلم أن الفن والأنانية صنوان ، وعلى أى حال فلن أستطيع أن أنكر عليه الحانا جميلة فى صوته ، ولكنها مع الأسف لا روح فيها وليس ثمة أية فائدة من ورائها » .

ودخل الفتى حجرته واضطجع على سريره مفكراً فى حبه وبعد هنيهة ظاله الكرى بجناحيه .

ولما أضاء البدر فى السماء طار البلبل الى شجرة الورد ، وأسند صدره الى الشوكة وجعل يغنى طول ليله والشوكة تنفذ فى صدره رويداً رويداً . حتى تدفق الدم من عروقه والبدر ينصت اليه فى هدوء .

غنى البلبل أولا عن الحب وكيف يولد فى قلب كل صبى وصبية ، وعند ذلك أسفرت وردة بديعة فى أعلى أغصان الشجرة ، وكانت تزداد ورقة فى إثر ورقة كما كان يرسل البلبل الحانه لحنا فى اثر لحن . وكان لونها أول الأمر شاحبا كلون الضباب الذى يطفو على صفحة النهر ، أو كقدم الصبح اذا تقدم يسعى ، أو كجناحى الفجر عند طلوعه ، كان كلامه حيال الزهرة فى مرآة فضية ، أو فى صفحة بركة ساكنة . ولكن الشجرة أهابت بالبلبل أن يضغط بصدره على رأس الشوكة قائلة : « أقبل بصدرك على الشوكة أكثر مما تفعل أيها البلبل الصغير والا أسفر الصبح ولما تتم الوردة .

وأطاع البلبل فاشتد ضغطه على الشوكة ، وكانت ألحانه تعلو شيئا فشيئا اذ أخذ يغنى عن العاطفة ، وكيف تنشأ فى نفوس الفتيان والأوانس . وهنا تمشت حمرة خفيفة فى الوردة ، حمرة أشبه بتلك التى تصبغ وجنة العروس عندما يطبع أول قبلة على شفتى عروسه ! ولكن الشوكة لم تكن حينذاك قد وصلت الى قلبه ، فبقى قلب الوردة أبيض ، فلن يصبغه بالحمرة الا الدم المنبعث من صميم قلب البلبل ولذلك صاحت الشجرة بالبلبل قائلة : أقبل بصدرك على الشوكة أيها البلبل الصغير والا طلع النهار ولما تتم وردتك » .

وزاد البلبل الشوكة ضغطا حتى مست قلبه فاشتد ألمه ، وكان غناؤه يزداد ارتفاعا كلما اشتدت حدة الألم ، كانت ألحانه تتجه اتجاها غير متزن ، اذ كان حينذاك يغنى عن الحب كيف يصل به الموت الى الكمال وكيف يضمه القبر ، فلا سبيل الى تغيره فى هذا المثوى الاخير .

وهكذا اكتست الوردة لونا قرمزيا ، سرى فى جميع اجزائها ، وكان صوت البلبل المسكين يتضاءل ، وكانت أجنحته ترف وقد مرت غشاوة أمام بصره حتى وصل لحنه الى صوت خافت وأحس بحشرجة فى حنجرته .

وأطلق البلبل آخر نغماته فسمعها القمر الوضىء ، فنسى مطلع الفجر وتلكأ فى صفحة السماء ، وسمعته الزردة الحمراء فاهتزت اهتزاز الغبطة ، وفتحت أوراقها لنسيم الصباح ، وحمل الصدى هذا اللحن الى الكهف القائم على سفح التل فبدد أحلام الرعاة وأيقظهم من سباتهم ، ثم سبح هذا اللحن خلال اليراع المتمايل على ضفة النهر ومن ثم اتخذ سبيله الى البحر .

وخاطبت الشجرة البلبل قائلة : هاهى ذى الزهرة قد تمت ، انظر بعينك اليها ما أجملها ، ولكن البلبل لم يجب فقد لفظ انفاسه وسقط جثة هامدة بين الحشائش ، والزهرة مغموسة فى صدره . وعند الظهيرة فتح الطالب نافذته والقى ببصره الى الحديقة فصاح قائلا « يالله من حظ سعيد هاهى ذى وردة حمراء . لعمرى ما رأيت وردة كهذه فى حياتى . ان جمالها ليميل بى الى الاعتقاد بأنه لابد أن يكون لتلك الوردة اسم لاتينى طويل » ثم ذهب اليها فقطفها .

ولبس الفتى قبعته ، وجرى الى بيت الاستاذ والوردة فى يده وكانت ابنة الاستاذ جالسة لدى الباب تلف خيوطا من الحرير الأزرق وكلبها الصغير نائم عند قدميها فخاطبها الفتى قائلا :

« لقد وعدت أنك سوف تراقصينى اذا أحضرت لك وردة حمراء ، انظرى الى هذه الوردة انها أشد الورود فى العالم حمرة سوف تضمينها هذه الليلة على صدرك فى موضع قلبك ، وعندما ندور معا فى رقصتنا ستحدثك هذه الورة عن مبلغ حبى لك »

ولكن الفتاة عبست قليلا ثم قالت

« أخشى ألا يلائم لونها لون ملابسى ، وزيادة على ذلك فقد أرسل الى ابن أخى رئيس الحجاب بعض الحلى الثمينة وأظنك تعرف أن الحلى أغلى من الزهور » .

وصاح الفتى منضبا :

« لعمرى انك ناكرة للجميل » . ثم رمى بالزهرة فى الشارع فرت فوقها عجلة فتلاشت وأجابت الفتاة

« ناكرة للجميل » ؟ يالك من فظ ! ولكن قبل كل شىء اخبرنى من أنت ؟ ان أنت الا طالب فحسب ، وما أظنك قد اتخذت يوما رباط حذائك من فضة كما فعل ابن اخى رئيس الحجاب » ثم نهضت واقفة ودخلت المنزل .

وقال الطالب وهو يبتعد عن دارها ، ما أسخف الحب ، اين هو من المنطق وفوائده ؟ إنه لن يحقق شيئا ما ، ولن يحدثنا الا عما لا يمكن حدوثه ، وزيادة على ذلك فهو يجعل المرء يعتقد فى أشياء لا ظل لها من الحقيقة ، إنه فى الواقع أمر غير عملى ، وما دامت النزعة العملية هى كل شىء فى هذا العصر ، فانى سوف اتجه ثانية الى الفلسفة وأدرس العلوم العقلية .

وعلى ذلك اتجه الى حجرته وتناول كتابا كبيرا قد علاه التراب ، ففتحه وانكب عليه قارئا .

محمود الخفيف